آداب الطريق

للأستاذ عبد الحفيظ فرغلي القرني

الأستاذ بدار المعلمات بالزمالك

(٣)

هذه المراقبة لها أثر كبير فى تحسين السلوك ، ونحن إذا قسناها بمقياس « علم النفس » الحديث وجدناها عاملا مهما من عوامل التربية ، التى يحاول المربون والعلماء أن يأخذوا تلاميذهم بها ، بحيث يصبح للشخص رقيب من داخل نفسه ، يزن أعماله ، ويراقب تصرفاته ، فإذا ما حدث منه خطأ كان لتأنيب ضميره آلام تؤرقه ، وما زال هذا الرقيب يقوى ، حتى تصبح عادات الشخص الطيبة تلقائية غير متكلفة لا يصدر عنه إلا كل محمود الخصال والفعال .

وكثير من العادات السيئة التى يجهد المربون كثيرا فى محاربتها . تمكن الصوفية من القضاء عليها بفضل ما أخذوا أنفسهم به من آداب . فلسنا نرى صوفيا حقيقيا يتتبع عورات غيره ، أو يخوض فى سيرته أو يكشف أخطاءه ، ويتمنى سقطاته وزلاته ؛ لأنهم يرون فى هذه معوقات لهم عن بلوغ أهدافهم ، ولهم فى قول الرسول — صلى الله عليه وسلم — « طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس » ، ومن قوله « إن أحبكم إلى أحسنكم أخلاقا ، الموطئون أكنافا ، الذين يألفون ويؤلفون ، وإن أبغضكم إلى المشاءون بالنميمة المفرقون بين الأحبة الملتمسون للبرآء العيب » لهم من هذه الدرر وأشباهها منار يهتدون به ، ويقبسون من ضوئه .

وترك الفضول هذا ، هو الذى استوجب عندهم الخلوة ، واستعانوا عليه بالصمت وقاوموه بالذكر ، وقطعوا الطريق عليه بألوان المجاهدات ، لأنهم اعتبروا أن التدخل فى شئون الغير بغير ذريعة موجبة أمر مسف ، مضيع للشرف ، ومذهب للكرامة . وقديما قال الحكماء « من تدخل فيما لا يعنيه لقى ما لا يرضيه » وقريب من هذه العبارة قوله تعالى « يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » . وإنى لأترك للزمخشرى تفسير هذه الآية الكريمة ، حتى لا يظن ظان أنها تدعو إلى الانطواء

أو هجر المجتمع وترك إصلاحه فهو يقول : « وليس ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فإن من تركهما مع القدرة عليهما فليس بمهتد ، وإنما هو بعض الضلال الذى فصلت الآية بينهم وبينه » .

والصوفى يرى أن نفسه أحق بالاصلاح من غيرها ، فإذا هو تمكن من إصلاحها وتوجيهها ، وأحسن سياستها وقدر على التحكم فيها . أصبح أهلا لأن يرشد غيره وينصحه ويهديه سواء السبيل ، وهو فى سبيل ذلك يتحمل كثيراً من الآلام والمشقات والمتاعب التى لا يصمد لها إلا من وفقه الله وهداه ، ولابد له أن يجتاز سلسلة امتحانات عسيرة من شيخه ، عليه أن يجتازها جميعا بنجاح وتفوق ، قبل أن يأذن له فى القيادة والارشاد .

ولذلك نرى أن أبصر الصوفية وأعرفهم ، ممن كشف الله لهم الحجب ، وأطلعهم على بعض أسراره وألهمهم بحكمته قوة الادراك ونفاذ البصيرة ، واستجلاء الأمور ، يجدون حرجا كبيراً فى إهدار هذه الأسرار أو إظهار ما يعرفونه من عيوب مخالطيهم وغيرهم من الناس . فإذا ما أرادوا توجيههم سلكوا معهم طرق الإشارات والرموز أو ضرب الأمثلة أو غير ذلك مما لا يدعو إلى الاحراج ، أو يؤدى إلى الفتنة أو يكشف أستار الجلال .

ولا بد للصوفى أن يكون زاهداً حقيقيا ، بمعنى ألا يكون مستشرفا بقلبه إلى الشىء تاركا له بلسانه ؛ فإن هذا يتنافى مع حقيقة الزهد الذى كان شعار المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وحلية أصحابه من بعده .

وليس الزهد ضعفا كما يظنه بعض الناس ، ولكن الزهد هو القوة فى أجلى معانيها ؛ فليس أقوى من شخص تمكن من أن يقهر دواعى نفسه ، ويقضى على ما تستشرف إليه من حب كل ما تدعو إليه من زينة وجمال وعلو ، وقد قرأت للأستاذ طه عبدالباقى سرور فى هذا المعنى ما يلى : « يخطىء من يظن أن الزهد ضعف وهزيمة ، ولصوق بالأرض ، ورضاء بالذل ، وخناعة للظلم . فالزاهد شجاع كريم أبى ، ومجاهد سمح بالمال والنفس غير ضنين بهما يوم الروع والجلاد ، وإنما أسىء إلى فهم الزهد يوم أن ادعته طائفة عاجزة مرائية ، قعد بها الضعف والهوان فتسترت بالزهد والهوان ، وتلك أبغض الصفات للإسلام » .

والصوفية فى زهدهم لم يقفوا عند ظواهر اللفظ ، بل تحققوا به ، وجعلوه مقاما

من مقاماتهم الكريمة التى اكتسبوها بعد جهاد شاق مرير ، وتجاوز زهدهم حد الدنيا وما فيها من متاع إلى الجنة وما فيها من نعيم مقيم ، وهذه « رابعة العدوية » رضى الله عنها تكشف عن مقامها فى الجنة ، فتتمثل بهذا البيت :

إن كان منزلتى فى الحب عندكم ما قد رأيت فقد ضيعت أيامى

وسئلت : ما تقولين فى الجنة فقالت : الجار ثم الدار .

وعلى قدر تحقق الانسان بهذه الفضيلة ، ومقدار فهمه لها تكون درجته ومنزلته . وأساس الزهد عند الصوفية مبنى على هوان ما سوى الله عز وجل ، فكيف يعلق العاقل قلبه بالهوان ؟ كل شىء فى نظرهم يشغلهم عن حضرة الحق تافه لا قيمة له ، ولا ينبغى للمريد أن يشغل نفسه به ، حتى لا يعوقه هذا عن قصده ، ولو كان هذا الشىء هو الجنة نفسها . قال الحلاج رضى الله عنه : « علامة العارف أن يكون فارغا من الدنيا والآخرة » .

ومع الزهد — كما يقول ابن عطاء الله — تعظم قيمة الأعمال ، وتتضاعف ثمارها ؛ لأنها صادرة من قلب خال من الهموم ، خالص من الأوهام ، فينقطع إلى الله متفرغ لخدمة مولاه . فتظهر مسحة الجمال والجلال على صاحبها ، وبذلك يكتسب حظوة عند الله سبحانه وتعالى . فيجزل له العطاء ويوفى له الجزاء .

والشكر والصبر أمران لازمان للمريد ، ولا يزال يتحلى بهما حتى يصبح كل منهما مقاما له خطره وكماله .

ومعروف أن الشكر يكون فى حالة النعمة ، والصبر يكون فى حالة النقمة ، وكم يكون جميلا من المرء أن يتذكر الله فيشكره عليها ، ويتمثل قدرة الله فيصبر على قضائه وقدره ، ولكن الأجمل من ذلك عبد يرى المصائب نعمة تستحق الشكر ، ويرى النعم محنة تستوجب الصبر ، وهذا هو المفهوم الزائد للصوفية من هاتين الفضيلتين . فهم ينظرون فى كليتهما إلى المؤثر لا إلى الأثر . فإذا ما ابتلى الله عبداً منهم عد ذلك دليلا على أنه موضع رعايته ، ومحط عنايته . فهو يتقبل هذا الأمر بالرضا والتسليم والشكر الجزيل ، ومن هنا يجىء معنى قوله عليه الصلاة والسلام : المؤمن مصاب) فإذا ما ارتفع عن ذلك درجة آثر رضا الله على رضاه ورأى فى اختيار الله له غنى عن اختياره ، قال عامر بن قيس (أحببت الله حباً هون على كل مصيبة ، ورضانى بكل بلية) ، ويقول عمر بن عبد العزيز (أصبحت ومالى سرور لا فى مواقع القدر) .

وإذا ما أجزل له النعم فهم من ذلك عكس ما يفهم العامة منها ، فهو ينظر إليها على أنها استدراج له ، واختبار لعزيمته وامتحان لسلوكه ، فعليه أن يتقبل هذا الابتلاء بالعزم الصادق والقلب الثابت والإرادة الحاسمة ، التى تتبدد أمامها الخواطر النفسية التى تدعو إلى الركون والاستسلام والضعف ، ولعل هذا هو الذى يلتقى مع قول القائل :

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ويبتلى الله بعض القوم بالنعم

أقول : إن الصوفية رضوان الله عليهم لهم مفاهيم زائدة على غيرهم فى الآداب والفضائل يدركونها بثاقب فكرهم ، ونافذ بصيرتهم ، ويكونون إزاءها شخصية مستقلة تشع نوراً وجلالا وعرفانا ، وتصبح هذه الإدراكات بمثابة منازل ينزلون فيها أرواحهم وقلوبهم ، فيستقون من فيضها ، ويقيسون من ضوئها ، ويشرقون على الملأ بفيوضات رائعة أخاذة ، وهم يطلقون على هذه المنازل مقامات ، ويكون ما يصدر عنها من إشعاع بمثابة الحال الذى يظهر ويختفى على حسب ما تقتضيه إرادة الله العظيم .

ولعلنا حينئذ أدركنا مقدار عناية التصوف بالأخلاق ، واعتبارها الأساس الأول الذى يبنى عليه قواعد طريقه ، بحيث لا يمكن لأى سائر مهما أخذ نفسه بألوان العبادات والمجاهدات أن يبلغ فى طريقه شيئا دون أن يأخذ من الأخلاق زاده ، وراحلته ، وإداوته ، ودليله ؟ .